الإسرائيليات و حكمها في التفسير

طاهر محمود*

تنقسم الإسرائيليات باعتبار الموافقة في شريعتنا و المخالفة لها ، إلى أربعة أقسام :

القسم الأول :

موافق لما في شريعتنا من الكتاب أو السنة ، فهو صحيح ؛ لأن هذه الموافقة دليل على أن الموافق لم تصل إليه يد التحريف و التبديل.

فإذا ذكر هذا القسم إنما يذكر استشهادًا لا اعتقادًا ، و لا حاجة لنا فيه استغناء بما ثبت في شرعنا ، و إذا ذكر في التفسير لا يكون هو المفسر للآية ، بل المفسر للآية هو ما ثبت في شرعنا ، فانتفى كون الآية مفسرة بها و محمولة عليها .

قال ابن كثير : ((فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناء بما عندنا)) (2).

القسم الثاني:

مخالف لما في شريعتنا ، فهو مردود غير مقبول ، لأن المخالفة دليل على أن أيدي من روى هذا الخبر قد امتدت إليه بالبعث و التغيير ؛ فيجب رفضه و اطراحه ، فلا يجوز التفسير به ، و لا تجوز حكايته إلى على سبيل التنبيه على بطلانه.

قال الإمام ابن كثير : ((و ما شهد له شرعنا منها – [يعني من الإسرائيليات] – بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار و الإبطال.

فإذا كان الله سبحانه و له الحمد ، قد أغنانا برسولنا محمد ص عن سائر الشرائع ، و بكتابه عن سائر الكتب ، فلسنا نترامى(3) على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط و خلط ، و كذب و وضع، و تحريف و تبديل، و بعد ذلك كله نسخ و تغيير)). (4)

فترد كل رواية إسرائيلية التي تعارض نص القرآن ، أو تخالف صحيح السنة ، أو تنافي أصلاً إسلاميًا مقررًا .

((فمن هذه الأصول الإسلامية عصمة الأنبياء ، و ترفعهم عن عمل السفهاء ، و بعدهم عن الوقوع في الفواحش و المحرمات ، و الأذى و العدوان ، واجتنابهم المكر و الخدعة. وقد أساء بنو إسرائيل إلى عدد من أنبياء الله إساءات متنوعة بالغة ، فكذبوهم و قتلوهم بغير حق، فألصقوا بهم الخنا (5)و النقص ، و الغدر و المكر، كما تنضح بذلك توراتهم المحرَّفة، و أناجيلهم المكذوبة)) . (6)

قال ابن الجوزي : ((إن القصص لأخبار المتقدمين تندر صحته ، خصوصًا ما ينقل عن بني إسرائيل، و في شرعنا غنية)). (7)

القسم الثالث: و ينقسم إلى نوعين :

أحدهما : مسكوت عنه و ليس في شريعتنا ما يؤيده و لا ينقضه ؛ لكنه أقرب إلى الخرافة و الكذب ، و تحيله العقول السليمة ، و تنكره الأفهام الصحيحة ، كجبل قاف المزعوم، و الحوت (نون) الذي تحمل عليه الأرض.

قال الحافظ ابن كثير : ((و إنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله ص : ((حدثوا عن بني إسرائيل و لا

*الأستاذ المساعد، بالجامعة الفيدرالية للفنون و العلوم و التكنالوجية بإسلام آباد،باكستان.

حرج)) (8) فيما قد يجوِّزه العقل ، فأما ما تحيله العقول، و يحكم عليه بالبطلان ، و يغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل)). (9)

ثانيهما : وهو ما كان من المسكوت عنه؛ لكن العقول السليمة لا تحيله و لا تستبعده ، و لا يغلب على الظنون كذبه، فيجب في مثل هذا التوقف، فلا يحكم عليه بصدق و لا كذب، و على هذا القسم يترل قول النبي **ص** : ((لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم ، **و قولوا آمنا بالله و ما أنزل إلينا**...)) الآية. (10)

قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث : ((أي إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لئلا يكون في نفس الأمر مصدقًا فتكذبوه، أو كذبًا فتصدقوه، فتقعوا في الحرج، و لم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه و لا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، نبَّه على ذلك الشافعي ~)). (11)

قال الإمام ابن كثير – بعد ذكره قول النبي **ص** : ((حدثوا عن بني إسرائيل و لا حرج)) : ((هذا محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا ، فليس عندنا ما يصدقها و لا يكذبها فيجوز روايتها للاعتبار)). (12)

قال العلامة عبد الرحمن السعدي عليه رحمة الله : ((و اعلم أن كثيرًا من المفسرين – رحمهم الله – قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، و نزَّلوا عليه الآيات القرآنية ، و جعلوها تفسيرًا لكتاب الله، ... فإنه لا يجوز جعلها تفسيرًا لكتاب الله قطعًا إذا لم تصح عن رسول الله **ص** .

و ذلك أن مرتبتها كما قال رسول الله **ص** : ((لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم)) .

فإذا كانت مرتبتها أن تكون مشوكًا فيها ، و كان معلومًا بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به ، و القطع بألفاظه و معانيه . فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة ، التي يغلب على الظن كذبها ، أو كذب أكثرها ، معاني لكتاب الله ، مقطوعًا بها ، و لا يتريب بهذا أحد. ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل . و الله الموفق)). (13)

و مما سبق يظهر أن الإسرائيليات – بجميع أقسامها – لا تثبت حكمًا ، و لا تكون مكانًا للاستنباط ، بل غايتها الاستئناس و الاستشهاد، لا الاعتقاد و الاعتضاد، و أنه لا يجوز الأخذ بها في إثبات حكم شرعي من أحكام الشريعة ، و لا يصح تفسير القرآن الكريم بجميع أنواعها إذا لم تثبت عن الصادق الأمين **ص** الذي قال الله عزوجل فيه : **{ و ما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى }**(14) قال شيخ الإسلام : ((فأما أن يثبت شرعًا لنا بمجرد الإسرائيليات التي لم تثبت فهذا لا يقوله عالم)) . (15)

التحذير من الإسرائيليات:

قد تعرَّض جماعة من علماء التفسير – قديما و حديثًا و حذروا من خطورتها و الوقوع فيها فمن أقوالهم في ذلك :

1- قال ترجمان القرآن و حبر الأمة عبد الله بن عباس {: ((كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء و كتابكم الذي أنزل على رسول الله **ص** أحدث ، تقرأونه محضًا لم يشب؟ (16) ، و قد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله و غيّرواه ، و كتبوا بأيديهم الكتاب و قالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً ، لا ينهاكم ما جاء كم من العلم عن مسألتهم ، لا و الله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم)). (17)

2- نقل القرطبي قول أبي بكر بن العربي في معرض رده على الإسرائيليات : ((... و الإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك ، و أصم عن سماعها أذنيك ، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً ، و لا تزيد فؤادك إلا خبالاً)). (18)

3- قال الحافظ ابن كثير – وهو فارس هذا الميدان -: ((و الذي نسلكه في هذا التفسير ، الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان و لما اشتملت عليه من الكذب المروج عليهم ، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها و سقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة ...)). (19)

و بعد أن فرغ من إيراده الأخبار الطويلة الغريبة في قصة ذبح البقرة عند تفسير قوله تعالى : { **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً...** } (20) قال : " وهذه السياقات .. فيها اختلاف، و الظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل ، وهي مما يجوز نقلها و لكن لا تصدق و لا تكذب ؛ فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، و الله أعلم" . (21)

و عند ما تعرَّض لتفسير أول سور (ق) عقّب تفسيره بالإسرائيليات بقوله : ((... و قد روي عن بعض السلف أنهم قالوا (ق) : جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف (22)، و كأن هذا – و الله أعلم – من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق و لا يكذب ، و عندي أن هذا و أمثاله و أشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يلبسون به على الناس أمر دينهم ، كما افترى في هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها ، و حفاظها ، و أئمتها ، أحاديث عن النبي ص ، و ما بالعهد من قدم . فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى و قلة الحفاظ النقاد فيهم ، و شربهم الخمور، و تحريف علماءهم الكلم عن مواضعه ، و تبديل كتب الله و آياته ؟ ... و قد أكثر كثير من السلف من المفسرين ، و كذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد ، و ليس بهم احتياج إلى أخبارهم و لله الحمد والمنة)) . (23)

4- عاب الإمام الألوسي على المفسرين الذين أدرجوا قصص باطلة، و روايات إسرائيلية، و أخبارًا مكذوبة ، في كتبهم، حيث انتقد رواية إسرائيلية في قصة عجيبة و غريبة عن عوج بن عنق، – سيأتي ذكرها في المبحث التالي – رواها بعض المفسرين ، و ذلك عند تفسير قوله تعالى : { **و لقد أخذ الله ميثاق بني إسرآئيل و بعثنا منهم اثنى عشر نقيبًا** } (24)، فقال – مستدلاً بأقوال الأئمة في إبطال القصة، و مشيرًا إلى مصدرها -: ((و أقول قد شاع أمر عوج عند العامة ، و نقلوا فيه حكايات شنيعة، و في فتاوى العلامة ابن حجر(25) قال الحافظ العماد ابن كثير : قصة عوج و جميع ما يحكون عنه ، هذيان لا أصل له ، و هو من مختلقات أهل الكتاب، و لم يكن قط على عهد نوح عليه السلام ، و لم يسلم من الكفار أحد. (26)

و قال ابن القيم : من الأمور التي يعرف بها كون الحديث موضوعًا ، أن يكون مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه، كحديث عوج بن عنق ، ... و ليس العجب من جرأة من وضع هذا الحديث و كذب على الله تعالى ، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير و غيره و لا يبيِّن أمره . ثم قال : و لا ريب أن هذا و أمثاله من صنع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء و السخرية بالرسل الكرام عليهم الصلاة و السلام و أتباعهم ...)) (27) . ثم فند هذه القصة بما حكاه عن غير من تقدم من الأئمة الذين استنكروا هذه القصة الخرافية . (28)

5- و قد حمل الشيخ **أحمد شاكر** على الأخذ بالإسرائيليات و روايتها في التفسير ، حملة مسعورة ، و يرى أن ذكرها بجانب كلام الله عزوجل يخالف ذكرها بجانب غيره من الكلام ؛ فعلق على ما ذهب إليه ابن كثير في تفسيره من جواز حكاية ما سكت عنه شرعنا ، و كان محتملاً للصدق و الكذب مستندًا لقول النبي **ص** : ((حدثوا عن بني إسرائيل و لا حرج)) بقوله : ((إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه و لا كذبه شيء، و ذكر ذلك في تفسير القرآن، و جعله قولاً أو رواية في معنى الآيات ، أو في تعيين ما لم يعين فيها ، أو في تفصيل ما أجمل فيها، شيء آخر؛ لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه و لا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه ، و مفصل لما أجمل فيه ، و حاشا لله و لكتابه ذلك . و إن رسول الله **ص** إذ أذن بالتحدث عنهم، أمرنا أن لا نصدقهم و لا نكذبهم . فأي تصديق لرواتهم و أقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله و نضعها منه موضع التفسير أو البيان ؟ اللهم غفرًا)) (29)

6- و تكلم الأستاذ محمد حسين الذهبي عن حقيقة الإسرائيليات ، و موقف المفسر إزاءها كلامًا جيدًا، فلنقرأ ما كتبه بعد ذكره أقسام الإسرائيليات : ((علمنا أن كثرة النقل عن أهل الكتاب بدون تفرقة بين الصحيح و العليل دسيسة دخلت في ديننا و استفحل خطرها ، كما علمنا أن قوله **ص** : ((لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم)) ، قاعدة مقررة لا يصح العدول عنها بأي حال من الأحوال، و بعد هذا و ذاك نقول : إنه يجب على المفسر أن يكون يقظًا إلى أبعد حدود اليقظة ، ناقدًا إلى نهاية ما يصل إليه النقاد من دقة و روية حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن ، و يتفق مع العقل و النقل ، كما يجب عليه أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا كان في سنة نبينا **ص** بيان لمجمل القرآن ... على أن من الخير للمفسر أن يعرض كل الإعراض عن هذه الإسرائيليات و أن يمسك عما لا طائل تحته مما يعد صارفًا عن القرآن ، و شاغلاً عن التدبر في حكمه و أحكامه، و بدهي أن هذا أحكم و أسلم)) . (30)

و ممن انتقد الإسرائيليات و وجودها في التفسير من علماء العصر الماضي القريب الشيخ أبو شهبة و الأستاذ محمد عبده و الأستاذ رشيد رضا رحمهم الله تعالى .

النماذج:

قصة ابن عوق :

1- و من الإسرائيليات التي لا تثبت و لا تتفق مع النقل و العقل بل تأباها النقول الصحيحة ، و العقول السليمة ، و الحقائق التأريخية ، و الأحداث الواقعية ما ذكره بعض المفسرين المشهورين الذين يرجع إليهم في التفسير و خاصة في التفسير المأثور ، عند تفسير قول الله تعالى : **{ و لقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل و بعثنا منهم اثنى عشر نقيبا }**،و قوله تعالى:**{يقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم و لا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين*قالوا ياموسى إن فيها قومًا جبَّارين و إنَّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون}**.(31)

فقد ذكر الإمام الطبري ، و ابن أبي حاتم ، و محيي السنة البغوي ، و القرطبي ، و جلال الدين السيوطي – رحمهم الله – كثيرًا من الإسرائيليات المحيرة و المدهشة للعقول في صفة هؤلاء القوم الجبارين و عظم أجسادهم، مما لا يتفق مع سنن الله تعالى في خلقه، و يخالف الأحاديث الصحيحة الثابتة .

فلنسق خلاصة هذه الإسرائيلية الظاهرة البطلان كما نقلها الإمام البغوي في تفسيره خالية من أي تعقيب و عارية من تعليق ما : ((... فاختار موسى النقباء ، و سار موسى ببني إسرائيل حتى قربوا م أريحاء ، فبعث هؤلاء النقباء يتجسسون له الأخبار و يعلمون علمها، فلقيهم رجل من الجبابرة يقال له : عوج بن عنق (32)، و كان طوله ثلاثة آلاف و ثلاثمائة و ثلاث وثلاثين ذراعًا و ثلث ذراع ، و كان يتحجز بالسحاب و يشرب منه و يتناول الحوت من قرار البحر فيشيه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله.

و يروي أن الماء طبق ما على الأرض من جبل و ما جاوز ركبتي عوج وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يد موسى عليه السلام ، و ذلك أنه جاء و قلع صخرة من الجبل على قدر عسكر موسى عليه السلام ، و كان فرسخًا في فرسخ (33)، و حملها ليطبقها عليهم ، فبعث الله الهدهد فقور الصخرة بمنقاره فوقعت في عنقه فصرعته ، فأقبل موسى عليه السلام وهو مصروع فقتله . و كانت أمه عنق إحدى بنات آدم و كان مجلسها جريبًا(34) من الأرض، فلما لقي عوج النقباء و على رأسه حزمة من الحطب أخذ الاثنى عشر و جعلهم في حجزته و انطلق بهم إلى امرأته ، وقال : انظري إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا، و طرحهم بين يديها وقال : ألا أطحنهم برجلي؟ فقالت امرأته : بل خلِّ عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا ففعل ذلك .

و روي أنه جعلهم في كمه و أتى بهم إلى الملك فطرحهم بين يديه، فقال الملك : ارجعوا فأخبرهم بما رأيتم، و كان لا يحمل عنقودًا من عنبهم إلا خمسة أنفس منهم في خشبة ، و يدخل في شطر الرمانه إذا نزع منها حبها خمسة أنفس، فرجع النقباء و جعلوا يتعرفون أحوالهم ، وقال بعضهم لبعض يا قوم : إنكم إن أخبرهم بني إسرائيل خبر القوم ارتدوا عن نبي الله و لكن اكتموا، و أخبروا موسى و هارون فيريان رأيهما و أخذ بعضهم على بعضهم الميثاق بذلك، ثم إنهم نكثوا العهد و جعل كل واحد منهم ينهى سبطه عن قتالهم و يخبرهم بما رأى ، إلا رجلان...)) . (35)

و لا شك أن هذه القصة من الروايات الإسرائيلية و الخرافات المزرية التي لا يستغرب دسها و ترويجها من قبل أعداء الإسلام من اليهود و النصارى لتشويه سمعة الإسلام و حقائقه ، و لتنفير الناس عنه.

((و مثل هذه السخافات تؤلب على الإسلام الطاعنين ، و تُضحك منه الملحدين ، و تزهد من الدخول فيه المرتادين ، و تزيد في شكوك المرتابين)) . (36)

ذكر الإمام ابن قتيبة قول المعتزلة في تكذيب مثل هذه الأخبار ورد عليهم فقال : (قالوا : حديث يكذبه النظر) :

قالوا : رويتم أن عوجًا اقتلع جبلاً ... قالوا : هذا كذب بيِّن لا يخفى على عاقل و لا جاهل . و كيف صار في زمن موسى عليه السلام من خالف أهل الزمان هذه المخالفة ؟

و كيف يجوز أن يكون من ولد آدم من يكون بينه و بين آدم هذا التفاوت؟!

و كيف يطبق آدمي حمل جبل على رأسه قدره فرسخ في فرسخ ؟!!.(37)

(قال أبو محمد)–يعني ابن قتيبة–و نحن نقول:إن هذا حديث لم يأت عن رسول الله ص و لا عن صحابته،و إنما هو خبر من الأخبار القديمة، التي يرويها أهل الكتاب، سمعه قوم منهم على قديم الأيام فتحدثوا به))(38)

و قد نقل الإمام ابن كثير هذه القصة عن الطبري و قال : ((و في هذا الإسناد نظر)) ، ثم نقل رواية ابن أبي حاتم ، و علق عليها بقوله : ((و قد ذكر كثير من المفسرين هنا أخبارًا من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء

الجبارين و أن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام ... و هذا شيء يُستحى من ذكره ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ص قال :" إن الله خلق آدم و طوله ستون ذراعًا ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن". (39)

ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافرًا و أنه و لد زنية ، و أنه امتنع من ركوب سفينة نوح، و أن الطوفان لم يصل إلى ركبتيه . و هذا كذب و افتراء ، فإن الله تعالى ذكر أن نوحًا دعا على أهل الأرض من الكافرين ، فقال : **{رَبِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّارًا }** (40) و قال الله تعالى : **{ فأنجيناه و من مَّعه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين }** (41) وقال الله تعالى : **{ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رَّحم }** . (42)

و إذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف يبقى عوج بن عنق و هو كافر و ولد زنية ؟ هذا لا يسوغ في عقل و لا شرع . ثم في و جود رجل يقال له : عوج بن عنق نظر، و الله أعلم)). (43)

و قد تقدم موقف العلامة ابن حجر ، و ابن القيم ، و الألوسي من هذه القصة قريبًا فلا داعية لإعادة كلامهم . و شهرة بطلان هذه القصة تغنينا عن ذكر اسناده و دراسته .

قال الشيخ أبو شهبة في معرض إنكاره هذه الإسرائيلية شديد الإنكار : ((و سواء أكان عوج بن عنق شخصيته وجدت حقيقة ، أو شخصية خيالية : فالذي ننكره هو : ما أضفوه عليه من صفات و ما حكوه (44)حوله من أثواب الزور و الكذب و التجرؤ على أن يفسر كتاب الله بهذا الهراء (45)، و ليس في نص القرآن ما يشير إلى ما حكوه و ذكروه ، و لو من بُعد ، أو على وجه الاحتمال، ثم أين زمن نوح من زمن موسى عليه السلام و ما يدل عليه آية : **{ قالوا يموسى إن فيها قومًا جبَّارين و إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها... }** (46) كان في زمن موسى قطعًا ، و لا مرية في هذا ، فهل طالت الحياة بعوج حتى زمن موسى ؟! بل قالوا : إن موسى هو الذي قتله ، ألا لعن الله اليهود ، فكم من علم أفسدوا ، و كم من خرافات و أباطيل وضعوا)) . (47)

قصة داود عليه السلام :

2- و من تلك الإسرائيليات المخترعة التي اشتملت عليها كتب التفسير ما روي في تفسير قوله تعالى : {و هل أتاك نبؤا الخصم إذ تسوَّروا المحراب } [من الآية : 21 إلى آخر الآية : 26 من سورة ص] .

فقد ذكر مقاتل بن سليمان ، و ابن جرير الطبري ، و ابن أبي حاتم، و البغوي ، و القرطبي، و السيوطي من الأخبار ما تقشعر منه الأبدان و اشمأزت منه القلوب، و لا يوافق عقلاً و لا نقلاً.

و الإسرائيلية التي تتصل بشأن داود عليه السلام في تفسيرهذه الآيات طويلة، فإليك ملخصها :

((قال داود : رب اتخذ إبراهيم خليلاً ، و كلمت موسى تكليمًا فوددت أنك أعطيتني من الذكر مثل ما أعطيتهما ، فقال له : إني ابتليتهم بما لم أبتلك به ، فإن شئت ابتليتك و أعطيتك مثل ما أعطيتهما من الذكر، قال : نعم، قال : اعمل عملك .

فقيل له : هذا اليوم الذي تبتلى فيه فأخذ الزبور، و دخل المحراب و أغلق بابه، و أقعد خادمه على الباب، و قال لا تأذن لأحد اليوم، فبينما هو يقرأ الزبور، إذ جاء طائر مذهب يدرج بين يديه، فدنا منه، فأمكن أن يأخذه، فطار فوقع على كوة (48)المحراب، فدنا منه ليأخذه، فطار، فأشرف عليه لينظر أين وقع ، فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض ، فتعجب من حسنها ، و لما رأت المرأة ظله نفضت شعرها، فغطت جسمها، و كان زوجها – أوريا بن حنان – غازيًا في سبيل الله ، فكتب داود إلى رأس الغزاة : أن اجعله في حَمَلَة التابوت، فقتل.

و في بعض هذه الروايات الباطلة : أنه فعل ذلك ثلاث مرات، حتى قتل في الثالثة ، و في بعضها أن داود سقاه ما أسكره ، فلما انقضت عدتها خطبها داود فتزوجها فولدت له سليمان بن داود، فبعث الله عزوجل ملكين داود عليه السلام ليستنقذه بالتوبة، فتسوَّروا المحراب، و كان ما كان ، مما حكاه الله تعالى)) . (49)

فهذه الأفاعيل التي نسبت وزرًا و بهتانًا إلى داود عليه السلام لو صدرت من إنسان عادي ليس نبيًا لكان فعله هذا بمنتهى الدناءة و الخسة . فكيف يتصور وقوع هذا من نبي جليل من أنبياء الله قال الله في حقه : { **و إن له عندنا لزلفى و حسن مئاب** } . (50)

و القصة مروية عن طريق السدي الصغير، و الكلبي ، و مقاتل بن سليمان ، و في إسناده بعض هذه الروايات : يزيد بن أبان الرقاشي، و كلهم من الضعفاء أو المتروكين . (51)

و لا شك في كون هذه القصة من الإسرائيليات المختلقة التي تخل بمقام الأنبياء و كرامتهم ، و تنافي عصمتهم و منزلتهم .

و أما ما اشتملت عليه هذه القصة من الأباطيل ، و الأمور المنافية لمقام النبوة و قداستها فيتلخص فيما يلي :

1- إنهم نسبوا إلى داود عليهم السلام التهجم بالاطلاع على عورة امرأة أجنبية عنه.

2- انتهاك حرمة الجوار.

3- الغدر بزوج المرأة و تدبير المكيدة لقتله ليستولي على امرأته .

4- الخضوع لشهوته الطبيعية حيث لم يكتف بتسع و تسعين امرأة من نسائه، و اتخذ الإجرام وسيلة إلى ضم زوجة جاره إلى نسائه.

5- إلصاق جريمة شرب الخمر حتى السكر به ، و سقيه غيره معه. (52)

و قد أنكر جمع من العلماء و المفسرين النقاد هذه القصة رواية و دراية ، عقلاً و نقلاً ، فنورد بعض أقوالهم وردودهم عليها باختصار لإحقاق الحق و إبطال الباطل:

قال الإمام القاضي عياض ~ : ((لا تلتفت إلى ما سطره الأخباريون من أهل الكتاب ، الذين بدلوا و غيروا و نقله بعض المفسرين ، وليس في قصة داود عليه السلام و أوريا خبر ثابت)) . (53)

قال ابن الجوزي عند تفسيره لهذه الآيات : ((فأما ما روي من أنه نظر إلى المرأة فهويها ، و قدم زوجها للقتل فإنه وجه لا يجوز على الأنبياء ؛ لأن الأنبياء لا يأتون المعاصي مع العلم بها)) . (54)

وجوه إبطال هذه القصة :

أبطل الإمام فخر الدين الرازي القصة بوجوه قوية حيث علق عليها بقوله : ((و الذين أدين به و أذهب إليه أن ذلك باطل و يدل عليه وجوه:

الأول : أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الخلق و أشدهم فجورًا لاستنكف منها .

الثاني : أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين : إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حق، و إلى الطمع في زوجته، أما الأول فأمر منكر، قال ص : ((من سعى في دم مسلم و لو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبًا بين عينيه آيس من رحمة الله)) . (55)

و أما الثاني فمنكر عظيم ، قال ص :

((المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده)) (56) ، و أن أوريا لم يسلم من داود – على زعمهم – لا في روحه و لا في منكوحه.

و **الثالث** : أن الله تعالى و صف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشر المذكورة ، و وصفه أيضًا بصفات كثيرة بعد ذكر القصة ، و مثل هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفًا بهذا الفعل المنكر و العمل القبيح)) . (57)

و نقل الخطيب الشربيني عبارة الرازي هذه في تفسيره أثناء تفنيده هذه القصة، و خلال تقريره ما هو لائق في حق نبي الله داود عليه السلام . (58)

و قال البيضاوي : ((و ما قيل إنه أرسل أوريا إلى الجهاد مرارًا و أمر أن يقدم حتى قتل فتزوجها فهو هزء و افتراء)). (59)

أنكر أبو البركات النسفي هذه القصة بقوله : ((و ما يحكي من أن داود بعث مرة بعد مرة (أوريا) إلى غزوة البلقاء و أحب أن يقتل ليتزوجها – يعني زوجة أوريا – فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء الناس فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء ..)) . (60)

فند أبو الحسن الخازن هذه الرواية الإسرائيلية في تفسيره تحت عنوان : (فصل في تنزيه داود عليه الصلاة و السلام عما لا يليق به و ينسب إليه) . (61)

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآيات : ((قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات و لم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه و لكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثًا لا يصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ر ، و يزيد و إن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة و أن يرد علمها إلى الله عزوجل ، فإن القرآن حق و ما تضمن فهو حق أيضًا)).(62)

قال العلامة الشنقيطي : ((و اعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة مما لا يليق بمنصب داود عليه السلام ، و على نبينا الصلاة و السلام – كله راجع إلى الإسرائيليات ، فلا ثقة به ، و لا معول عليه، و ما جاء منه مرفوعًا إلى النبي ص لا يصح منه شيء)). (63)

كلمة لا بد منها :

اتضح مم سبق أن سوق الإسرائيليات في تفسير القرآن الكريم خطأ منهجي ؛ لأن في ذلك اعتمادًا على مصادر غير موثوقة، و معلومات غير صحيحة – و هي التوراة و الإنجيل المحرفان –، و مخالفة لأمر النبي ص في عدم تصديقهم.

و لم يكن يأخذ الصحابة } عن مسلمة أهل الكتاب شيئًا في تفسير القرآن سوى القليل النادر من بيان ما أبهمه القرآن أو لتفصيل ما أجمله مما يتعلق بجزئيات الحوادث و أخبار الأمم الماضية مع إيمانهم إيمانًا جازمًا بأن اليهود و النصارى قد ارتكبوا جريمة التغيير و التبديل في كتبهم و صحائفهم من التوراة و الإنجيل و حرفوا الكلم عن مواضعه، و من غير أن يخرجوا عن دائرة الجواز التي حددها رسول الله ص لصحابته بقوله : ((حدثوا عن بني إسرائيل و لا حرج))

و ((من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار))، و بقوله : ((لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم، و قولوا : **آمنا بالله و ما أنزل إلينا** ....)) الآية

فلا ينبغي أن يجعل من تلقي الإسرائيليات على هذا المنوال ذريعة للطعن في صحابة رسول الله ص و وسيلة للنيل من كرامتهم و مجدهم؛ لأنهم كانوا يزنونها بالميزان الشرعي، كما لا ينبغي أن يتخذ من رواية هذه الإسرائيليات سلمًا للطعن و اللمز في رواتها الثقات من أمثال كعب و وهب ممن أثنى عليهم الصحابة } أجمعين و وثقهم و زكاهم أئمة الجرح و التعديل؛ ((و ذلك لأنهم حكوها عن كتب غير مصدقين لها على الإطلاق، بل كانت عقيدتهم فيها كعقيدة الصحابة ؛ ما جاء على وفق شرعنا صدَّقوه ، و ما خالفه كذبوه ، و ما لم يوافق أو يخالف شرعنا ردوا فيه العلم إلى الله عزوجل ، و ما مثلهم فيما ينقلون و يحكون إلا كمثل رجل أمين أراد أن يطلعك على مؤلف بغير لسانك، فترجمه إلى لغة تفهمها لتعرف ما فيه إن صدقًا أو كذبًا)) . (64)

و كذلك لا يتعرج من إنكار الإسرائيليات و ذم رواتها إلى إنكار الأحاديث الصحيحة الثابتة التي رواها الإمامان الشيخان البخاري و مسلم و غيرهما من أئمة الحديث في مصنفاتهم من السنن و المسانيد و الجوامع و نحوها . و يمكن لنا أن نمثل لذلك برد الأستاذ رشيد رضا بعض الأحاديث الصحيحة زاعمًا أنها من الإسرائيليات .

و من ذلك الحديث المخرج في صحيح البخاري الذي رواه عن أبي هريرة ر في تفسير قول الله تعالى : { **و ادخلوا الباب سُجّدا و قولوا حطة** } (65)عن النبي ص مرفوعًا : ((قيل لبني إسرائيل، { **و ادخلوا الباب سُجّدا و قولوا حطة** } فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا و قالوا : ((حطة حبة في شعرة)) . (66) و اختاره السيوطي في التفسير(67) فقال عنه السيد رشيد : ((ما اختاره الجلال مروي في الصحيح و لكنه لا يخلو من علة إسرائيلية)).(68)

و لما كثر دخول اليهود و النصارى في الإسلام في عهد التابعين كثر أخذهم عنهم، إذ تشوقوا إلى معرفة شيء جديد من القصص و الأنباء السابقة ، و بدء الخلق ، و تكوين الأرض و السماوات و غيرها من المعلومات المتنوعة ، فامتلأت التفاسير من المنقولات عن علماء أهل الكتاب.

و لقد كان لهذه الإسرائيليات التي أدخلها المفسرون – مهما صلحت نياتهم و طابت أغراضهم و حسنت مقاصدهم – في كتبهم بدون تفرقة بين الصحيح و العليل، و بين الغث و السمين ، أثر سيئ في التفسير ، فكانت مثارًا للشك، و الطعن ، و الرفض ، و التقول على الإسلام و نبيه ص ، و صحابته الكرام } ، و الاستهزاء بالمسلمات الدينية و المعتقدات الإسلامية ، فمن الأمر الضروري أن ترد و ترفض جميع الإسرائيليات التي تعارض القرآن الكريم، أو تنافي صحيح السنة ، أو تصادم إجماع الأمة، أو تخالف أصلاً مقررًا من الأصول الإسلامية مثل عصمة الأنبياء عليهم السلام و ترفعهم عن عمل السفهاء و بعدهم عن الوقوع في الفواحش و المنكرات .

و من هنا تأتي أهمية كبرى ، و ضرورة قصوى ، و حاجة عظمى إلى تنقية كتب التفسير المطبوعة منها و المخطوطة ، من الأحاديث و الأخبار الموضوعة ، و تصفيتها من القصص و الحكايات المصنوعة ، و تطهيرها من إسرائيليات بني إسرائيل المكذوبة ، و تخليتها من مجموعة الخرافات المركومة ، و تخريج أحاديثها بصورة موسوعة، و تجريد خيارها من رذائلها بصفة مضبوطة ، و لعل الله يهيئ من يقوم بهذه الأعمال المذكورة.

الهوامش

1- انظر : مقدمة البداية و النهاية : (5/1)، و مقدمة في أصول التفسير بتحقيق زرزور: (ص : 100).

2- أي نتتابع ، المعجم الوسيط : (74/1).

3- المصدر السابق الأول .

4- الخنا : قبيح الكلام و أفحشه . انظر لسان العرب : (244/14) مادة (خنا).

5- بحوث في أصول التفسير للدكتور محمد بن لطفي الصباغ: (ص: 151) بتصرف.

6- القصاص و المذكرون : (ص: 158)

7- أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، (572/6) ، برقم : (3461). من حديث عبد الله بن عمرو ر مرفوعًا.

8- تفسير ابن كثير : (236/4).

9- الآية من سورة البقرة : (136)، و انظر الحديث في صحيح البخاري ، كتاب التفسير باب ، **{ قولوا آمنا بالله و ما أنزل إلينا }**، (20/8) برقم : (4485) من حديث أبي هريرة ر .

10- فتح الباري : (20/8)

11- مقدمة البداية و النهاية : (5/1).

12- انظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : (98/1).

13- سورة النجم، الآيتان : (3-4).

14- انظر قاعدة جليلة : (ص : 163).

15- من الشوب : الخلط . انظر : الصحاح للجوهري : (158/1) ، و لسان العرب : (510/1).

16- أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الاعتصام بالكتاب و السنة ، باب قول النبي ص : ((لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء)). (345/13)، برقم : (7363)

17- تفسير القرطبي : (137/5). و لم أعثر عليه في مظانه من أحكام القرآن و لا من قانون التأويل كلاهما لابن العربي .

18- انظر : تفسيره : (181/3-182).

19- سورة البقرة ، من الآية : (67).

20- تفسير ابن كثير : (114/1).

21- انظر : المنار المنيف : (ص : 76). أنكر و أبطل ابن القيم هذه الرواية فيه .

22- المصدر السابق قبل الأخير : (236/4) .

23- سورة المائدة ، من الآية : (12) .

24- هو أحمد بن محمد بن محمد الهيثمي ، السعدي الأنصاري، الشافعي، شهاب الدين أبو العباس ، و حجر جد من أجداده، فقيه مشارك في أنواع من العلوم ، توفي سنة ثلاث و سبعين و تسعمائة بمكة المكرمة . انظر : شذرات الذهب : (370/8-372) ، و معجم المؤلفين للكحالة : (152/1).

25- انظر : مضمون هذا الكلام في تفسير ابن كثير : (40/2)، و البداية و النهاية : (107/1).

26- انظر : الفتاوى الحديثة لابن حجر الهيثمي : (ص : 188) ، و النقل عنه بتصرف يسير ، و المنار المنيف لابن القيم : (ص : 74-75) باختلاف يسير.

27- انظر : روح المعاني : (6/86-87).

28- عمدة التفسير : (15/1).

29- التفسير و المفسرون : (183/1-185)

30- سورة المائدة ، الآيتان : (12-22) .

31- منهم من يقول : ابن عوق، و هذا هو الصواب ، و منهم من يقول : ابن عنق كما ذكره البغوي و ابن كثير ، وهو المشهور . وفي القاموس المحيط : ((عوج بن عوق بضمها : - أي : العينين – رجل ولد في منزل آدم ، فعاش إلى زمن موسى ، و ذكر من عظم خلقه شناعة ... و من قال عوج بن عنق فقد أخطأ)).

32- الفرسخ : ثلاثة أميال ، أو اثنا عشر ألف ذراع وهي تقريبًا ثمانية كيلومترات ، و قيل : عشرة آلاف ذراع.انظر : القاموس المحيط : (ص 329) مادة (فرخ) ، والمنجد في اللغة و الأعلام : (ص : 576).

33- الجريب من الأرض مقدار معلوم الذراع و المساحة ، وهو عشرة ، وقيل : أربعة أقفزة . وقيل : المزرعة ، و الوادي . انظر : لسان العرب : (260/1)، و القاموس المحيط : (ص:85) .

34- تفسير البغوي : (3/29-30). و انظر : أيضًا تفسير الطبري : (6/174-175- طبع الحلبي-)، و تفسير القرطبي : (6/82-83)، و الدر المنثور : (3/48-49) .

35- الإسرائيليات و أثرها في كتب التفسير : (ص: 306).

36- يظهر من هذا مدى باع المعتزلة و قدر بضاعتهم في علم الحديث، و علو كعبهم في أصوله حيث لم يستطيعوا التمييز بين صحيحه و سقيمه ، و بين غثه و سمينه ، و استغلوا الطعن في الحديث و إنكاره بخرافة إسرائيلية .

37- تأويل مختلف الحديث : (ص : 187-188).

38- أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ر . انظر : صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم و ذريته : (6/417) برقم : (3326)، و صحيح مسلم كتاب الجنة ... باب يدخل الجنة أقوام ، أفئدتهم مثل أفئدتهم الطير : (4/2183) برقم : (2841).

39- سورة نوح ، من الآية : (26).

40- سورة الشعرآء ، الآيتان : (119-120).

41- سورة هود ، من الآية : (43).

42- تفسير ابن كثير : (2/4).

43- أي : نسجوه ، المعجم الوسيط : (212/1) مادة : (حاك).

44- المراء : الكلام الكثير الفاسد لا نظام له ، المصدر السابق : (980/2) مادة : (مرأ).

45- تقدم عزو الآية قريبًا .

46- الإسرائيليات و الموضوعات : (ص :187).

47- الكوة : الخرق في الجدار يدخل منه الهواء و الضوء ، المعجم الوسيط : (806/2) مادة : (كوى).

48- انظر : تفسير مقاتل : (1266/3-1268) ، و الطبري : (89/23-97)، و ابن أبي حاتم : (3238/10-3239) ، و البغوي : (78/7-79)، و القرطبي : (109/15-111)، و الدر المنثور : (300/4-302)، و تفسير الجلالين : (ص : 600).

49- سورة ص ، من الآية : (25).

50- انظر ميزان الاعتدال : (173/4-175)، تهذيب التهذيب : (284/10) ، و تقريبه : (ص : 545) برقم : (6868).

51- انظر : الإسرائيليات و أثرها في كتب التفسير للدكتور رمزي نعناعة : (ص : 230)، و منهاهج المفسرين للدكتور محمود النقراشي : (156/1).

52- انظر : الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى ص : (158/2).

53- زاد المسير : (116/7) .

54- أخرجه ابن ماجة في الديات ، باب التغليظ في قتل مسلم ظلمًا : (874/2) برقم : (2620) ، و البيهقي في السنن الكبرى : (22/8) من طريق يزيد بن زياد القرشي الدمشقي ، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ متقارب.

55- أخرجه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه ، كتاب الإيمان ، باب بيان تفاضل الإسلام ، و أي أموره أفضل ، (65/1)، برقم : (65).

56- تفسير الرازي : (189/26).

57- انظر : السراج المنير : (384/3-386).

58- أنوار التنزيل : (310/2) .

59- تفسير النسفي : (29/4).

60- انظر : تفسيره : (38/6-42).

61- تفسير ابن كثير : (34/4).

62- أضواء البيان : (24/7).

63- انظر : ما بين علامتي التنصيص في : الإسرائيليات و أثرها في كتب التفسير : (ص : 119).

64- سورة البقرة ، من الآية : (58).

65- صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب { **و إذ قلنا ادخلوا هذه القرية** } إلخ : (14/8) برقم : (4479).

66- انظر : تفسير الجلالين : (ص : 13).

67- تفسير المنار : (325/1).